الفصل الثالث:
إرهاب سيناء

- حتى لا نحرث في البحر: تفجيرات سيناء ومخططات إسرائيل
- على هامش تفجيرات شرم الشيخ: التضامن العربي لمواجهة الإرهاب
- تفجيرات دهب ولغز الإرهاب في سيناء
- هالات الخطر على سيناء

(١)

حتى لا نحرث في البحر:

تفجيرات سيناء ومخططات إسرائيل

أكدت صحيفة النيويورك تايمز الصادرة يوم ٢٥ يوليو ٢٠٠٥ أنها لا تستطيع أن تقطع بالجهة التي قامت بتفجيرات شرم الشيخ، ولكنها أكدت من ناحية أخرى أن هناك سلسلة من التفجيرات في مصر والسعودية والأردن وتركيا والمغرب ولندن ومدريد ونيويورك، وتجمعها جميعاً الصفة الإرهابية، دون أن تحدد أنها جميعاً جزء من شبكة واحدة.

وهذا التقييم في نظرنا يتوخى الحرص في الخوض في أمور الإرهاب الدقيقة، وهذا هو السبب في أنه لا يمكن التخطيط لتوقى تفجيرات جديدة، أو إحياء مدن سيناء السياحية، ما لم نواجه أنفسنا بسؤال جوهري: من قام بهذه التفجيرات؟ وبغير الإجابة المباشرة عن هذا السؤال، فإننا نحرث في البحر ونخاطر بضياع سيناء مرة أخرى.

فإذا كانت الصلة وثيقة بين تفجيرات طابا وشرم الشيخ من حيث استهداف الموقع السياحى والسياح المصريين وغيرهم، فإن شرم الشيخ لها دلالات أخطر، فهي عاصمة مصر الدبلوماسية، ومقر الإقامة شبه الدائمة للرئيس مبارك ولقاءاته ومؤتمراته، حيث أثبتت هذه التفجيرات ضعف الاحتياطات الأمنية التي يسهل اختراقها، مما يكشف ليس فقط ضعف الأمن، وإنما تواطؤ أمنى، وهو ما سوف تكشفه التحقيقات. فهل تسمح هذه الصلة بين هاتين الحالتين من الأعمال الإرهابية بأن نخلص إلى أن الفاعل واحد وإن تعدد المنفذون؟ وما هي معايير التفسير الملائمة لهذه الأحداث؟ بعبارة أخرى، لماذا التفجيرات، وفي شرم الشيخ، وفي يوم ٢٣ يوليو؟

يمكن أن نطرح ثلاث نظريات في سبيل التماس تفسير هذه التفجيرات.

النظرية الأولى، ترى أن القاعدة هي التي نفذت التفجيرين في طابا وشرم الشيخ. ويجب أن نلاحظ أن إسرائيل هي التي أعلنت منذ بداية أحداث طابا أنها القاعدة بعد أن تراجعت عن اتهام حماس في البداية.

نعتقد أن اتهام حماس كان يقصد به التمويه، وأن فرض القاعدة على اتجاه التحقيق يهدف إلى إيهام المحقق بسهولة التسليم بذلك، بعد أن أصبحت التكئة العامة لكل حوادث الإرهاب، وهو اتهام يساعد على الانضمام إلى التجريدات الأمريكية ضد هذا الأخطبوط. نلاحظ أيضاً أن التحقيق لم يسفر حتى الآن في أحداث طابا عن اتهام جهة بذاتها، وإنما انتهى إلى تقديم بعض المتهمين إلى المحاكمة، التي برئ فيها بعضهم، وقبض عليهم مرة أخرى في أحداث شرم الشيخ. نلاحظ كذلك أن إسرائيل قالت أنها توقعت أحداث شرم الشيخ، مثلما توقعت تفجيرات لندن، ثم حظر شارون على وزرائه التعليق على الأحداث. أما في شرم الشيخ فقد تفضل شارون وعرض على الحكومة المصرية التعاون معها لمكافحة "الإرهاب الإسلامي"، وهو نفس العرض الذي ينفذه شارون ضد هذا العدو مع روسيا في الشيشان، ومع الهند في كشمير.

من ناحية أخرى، صرح مدير المخابرات الحربية الإسرائيلية بأن إسرائيل مطمئنة تماماً إلى أن القاعدة لا تهاجمها، وهذه ملاحظة مثيرة، لأن القاعدة التي استهدفت الجميع لم تستهدف إسرائيل لسبب بسيط، ليس لأن إسرائيل بلغت من الكفاءة الأمنية ما يعصمها من أي عمليات للقاعدة، أو لأن إسرائيل لا تفعل ما لا يستوجب الانتقام من جانب القاعدة، ولكن لأننا نعتقد أن القاعدة هي الاسم الحركي للموساد.

ولا يعني ذلك بالضرورة أن تفجيرات لندن ومدريد ونيويورك وتركيا والسعودية والمغرب وغيرها هي من تدبير الموساد، ولكنه قد لا يكون بعيداً عنها، لأن كل هذه الأحداث تلحق الضرر المباشر بهذه الدول وبالمسلمين وبالإسلام، وهي بالنسبة للغرب تعطي الذريعة لزرع المزيد من الشكوك حول الأقليات الإسلامية، بحيث انطلق الإعلام الصهيوني ليؤكد أن المسلم إرهابي بطبعه إلى أن يُثبت هو العكس، وأن الأقليات الإسلامية نالت بشكل خطير من أمن الدول الغربية، وهي مسئولية دول الأصل التي جاءت منها هذه الأقليات.

أما النظرية الثانية، فتذهب إلى أن هذه التفجيرات هي تعبير دموى عن الغليان داخل مصر، والتفاعلات الساخنة على الساحة المصرية بين المعارضة والحكومة بسبب اتهام الحكومة والنظام بالعجز والجمود، وتفاقم المشاكل والإصرار على الإبقاء على هذه الأوضاع بما تحمله من مخاطر سياسية واجتماعية واقتصادية.

وترى هذه النظرية أن مدبري أحداث شرم الشيخ يقصدون أن تكون كحريق القاهرة إيذاناً بثورة ضد الثورة التي قامت عام ١٩٥٢، وذلك خلافاً لبعض التفسيرات التي ذهبت إلى أن حقد مدبري التفجيرات قد وصل إلى حد إفساد متعة المصريين وفخارهم بالاحتفال بعيدهم القومي، وانبلاج الفجر الجديد الذي كان بداية لرخائهم وسعادتهم، فاستكثر هؤلاء الحقدة كل هذا النعيم على مصر والمصريين.

وتستمر النظرية الثانية في التأكيد على أن وقوع التفجيرات في نفس يوم ذكرى الثورة هو إعلان عن فشل الثورة وانحرافها. ولكننى أتردد كثيراً في التسليم بوجاهة هذه النظرية، وسبب هذا التردد هو فداحة الخسائر البشرية والمادية والقومية التي لا يقدم عليها من يتمتع بأدنى حس وطني.

أما النظرية الثالثة، فتذهب بشكل مباشر إلى اتهام إسرائيل والموساد الإسرائيلي. وأما القرائن على ذلك فهي مجرد استنتاجات منطقية ولا تقوم على معلومات أو أدلة، مع إدراكنا القانوني الكامل للفارق بين الدليل والقرينة في المنطق القانوني.

القرينة الأولى: أن المتهمين بالضلوع في تفجيرات طابا يصرون على أنهم أبرياء، وأن مدبر هذا العمل هو مخابرات دول أخرى، وقد عجز التحقيق بعد مضى عشرة أشهر عن حشد أدلة تؤكد نسبة هذه الأفعال إلى المتهمين، ولكنى أحجم عن المضى في هذه النقطة احتراماً لسلطة القضاء الذي لا يزال ينظر هذه القضية، مع ملاحظة أن إدانة بعض الأشخاص لا يعني تبرئة المدبر والمخطط والمستخدم لهؤلاء الأشخاص.

القرينة الثانية: هي أن كل التفجيرات الرئيسية قد انحصرت في سيناء حتى في أكبر المناطق مناعة وحماية وهي شرم الشيخ، بخلاف المرحلة الأولى من الإرهاب التي انطلقت من صعيد مصر. وهذا يبعث بثلاثة رسائل مؤلمة لمصر. **الرسالة الأولى**، هي عجز أجهزة الأمن المصرية عن تأمين المدينة الهامة، مما يعني أن أمن المشاركين في اللقاءات الدولية قد أصبح

محل نظر، فقضى ذلك تماماً على هذه العاصمة الدبلوماسية لمصر في الوقت الحالي، لأن مما يزعج إسرائيل هو تأكيد الوجود المصري السلمي في سيناء، بعد أن جردتها معاهدة السلام من السلاح والوجود العسكري. **الرسالة الثانية**، هي أن مصر العاجزة عن حماية عاصمتها الدبلوماسية المحصورة بين البحر والصحراء لا تستطيع أن تكون شريكاً أمنياً لإسرائيل بعد انسحابها من غزة، مما يسمح لإسرائيل بحرمان مصر من أي دور في عملية السلام سوى في تمكين إسرائيل من الفصائل الفلسطينية، كما يسمح لإسرائيل بإقامة تحالف مباشر مع مصر لمحاربة "الإرهاب الإسلامي"، وهو يعني عندها حماس والجهاد. **أما الرسالة الثالثة**، فهي إظهار مصر بمظهر العاجز عن قمع الإرهاب في سيناء، بل وتصوير سيناء على أنها أصبحت منطقة جاذبة للعناصر الإرهابية، مما يتيح لإسرائيل أمرين أبسطهما أن تتعاون مع مصر لتأمين سيناء، وأقصاها هو فرض السيطرة الإسرائيلية على سيناء، ويعزز ذلك ما لاحظناه من أن إسرائيل تضع عينها حقاً على سيناء، بل يعتبرونها مستقبل إسرائيل. ولابد أن نشير في هذا المقام إلى أن النظرية الإسرائيلية حول سيناء لا يجوز أن التقليل من شأنها، فقد تفادت إسرائيل حتى الآن أن تظهر أن ظهور موسى في سيناء ووجوده في مصر يمكن أن يكون سبباً للمطالبات التاريخية، خاصة وأنها قد أظهرت هذا الإدعاء في مناطق بعيدة عن احتمال التصديق مثل هضبة الجولان السورية.

نشير أيضاً في هذا المقام إلى أن إسرائيل قامت بالاعتداء على مصر عام ١٩٥٦ ثم عام ١٩٧٦، وأوضح شارون في مذكراته أنه قام بمسح سيناء شبراً شبراً، وأنه يكن لها إعزازاً خاصاً. ويؤكد بعض الإسرائيليين الذين استوطنوا مستعمرات سيناء أنهم قرروا الجلاء عنها إيثاراً منهم لسلام شامل مع مصر يعلو فوق الاعتبارات الأنانية والعاطفية في هذه المستعمرات، فضلاً عن أن جلاءهم عن هذه المستعمرات هو أمر مؤقت. نشير من ناحية ثالثة، إلى أن إسرائيل قد استفادت من عدوان ١٩٥٦ بفتح مصر لمضايق تيران وصنافير في خليج العقبة أمام الملاحة الإسرائيلية، كما أنها بعد عدوان ١٩٦٧ قد أشاعت أن سيناء تعد مسرحاً خطيراً للمغامرات المصرية ضد أمن إسرائيل، وأن الاستيلاء على سيناء لا يعد احتلالاً، وإنما يعد إجراءاً احترازياً لمنع مصر من استخدامها في الهجوم على إسرائيل، مثلما أكدت إسرائيل أن استيلاءها على سيناء هو مكافأة لحقها في الدفاع الشرعي الوقائي.

وما دام المقام لا يتسع للرد على هذه المقولات الإسرائيلية، فقد أوردناها للدلالة على أن عين إسرائيل على سيناء منذ وقت طويل، ولذلك فإن محاولاتها جس نبض مصر ليس أمراً جديداً.

فقد حاولت إسرائيل جس نبض مصر فوجدتها متعاونة وتتعامل بدبلوماسية ودماثة غير متوقعة: قتلت إسرائيل ثلاثة جنود مصريين بنيران الجيش الإسرائيلي، وأكد شارون أن جيشه يؤدي واجبه ضد مهربي الأسلحة للمقاومة، وابتلعت مصر الإهانة الكبيرة، بل وحفظاً لماء الوجه أعلنت مصر أن شارون اعتذر للرئيس مبارك، وأظهرت الخارجية المصرية غضبها فطالبت شارون بالتحقيق الفوري وموافاتها بالنتائج، وبالفعل أبلغها شارون أن التحقيق أثبت ما سبق له تأكيده من أن جيشه يؤدي واجبه ضد الجنود المهربين، ومرة أخرى ابتلعت مصر الإهانة.

ثم خطفت إسرائيل ستة من الشباب من قلب سيناء في العريش، ولم تعلق مصر مطلقاً حتى اليوم على الحادث، ثم أعيد الشباب في إطار صفقة سلم فيها بالمقابل الجاسوس الإسرائيلي الخطير عزام عزام، والدليل على خطورته أن شارون استقبله بالأحضان، واعتبره بطل أبطال إسرائيل.

وقد بدت الصفقة وكأنها مرتبة، ونرجو ألا تكون كذلك، لأن مصر كانت ترفض دائماً جميع الضغوط العاتية للإفراج عن الجاسوس الخطير.

تلك هي بعض التصرفات الإسرائيلية المهينة لمصر، التي نشرت، ناهيك عن عشرات المواقف التي لا ينشر عنها شيء، وتشمل قتل بعض رجال الأمن والمواطنين، وهدم المنازل في رفح وغيرها.

إنني أحذر من أن إسرائيل تخطط للاستيلاء على سيناء، وقد حاولت مقايضة مصر على بعض المناطق مع مناطق إسرائيلية في النقب، والقيام بمشروعات أمنية مشتركة على الحدود. إن إسرائيل سوف تستقبل أكثر من مليون لاجئ خلال الأعوام الخمسة القادمة لموازنة الأقلية العربية المتزايدة، وترفض بالطبع حق العودة لأربعة ملايين فلسطيني كانوا في الأراضي التي قامت عليها إسرائيل. ولذلك لن تكون تفجيرات شرم الشيخ هي نهاية المطاف.

باختصار فإن هذه التفجيرات هي جزء من سياسة إسرائيل لإخلاء سيناء، فلا يجوز أن تغرق مصر في تفاصيل الخسائر، وتتجاهل جوهر المشكلة، وهو السياسة الإسرائيلية المرسومة لسيناء. أم أن سيناء دخلت في نطاق المقايضات السياسية فلم يتم تعميرها كما أوصت مختلف اللجان منذ ١٩٧٣؟